اسقف شهيد

المطران بطرس شبلي

١٨٧١-١٩١٧

بقلم الاب لامنس اليسوعي

في ٧ شبـاط سنة ١٩٠٨ ، خلف الكاهن الشاب بطرس شبلي المطران يوسف الدبس على ابرشية بيروت المارونية. وكانت اسقفية الدبس طويلة مخصبة بفضائله السامية ، وعلمه الغزير ، واعمـاله المتعدّدة التي اكتسبت له اعتبار الجميع ؛ وكفى بتأسيس مدرسة الحكمة الزاهرة ، وكاتدرائية مـار جرجس الفخمة لتخليد ذكراه.

اما الكاهن الذي خلف هذا الحبر الجليل المكلّل بالسنين والامجـاد فلم يكن يتجاوز السابعة والثلاثين. وكان متحدرًا من احدى تلك العيال اللبنانية التي تحفظ تقاليد الاستقامة والدين خلفاً عن سلف. وُلد في ١٩ كانون الاول سنة ١٨٧١ ، في قرية صغيرة جميلة اسمها دفون من بلاد الشوف . وتلقى مبـادئ القراءة والكتابة في مدرسة الضيعة الوضيعة ، حتى اذا ترعرع قـدم بيروت ، فدخل مدرسة الحكمة تحت رعاية سلفه الصالح . على انه لم يطل اقامته فيها . لان الرؤساء بعد ان تحققوا مواهب الطـالب الصغير ، ارسلوه الى باريس سنة ١٨٨٥ . فدرس هناك اللغتين اليونانية واللاتينية. ثم دخل مدرسة سان سولپيس الاكليريكية الشهيرة ، فاتقن فيها الفلسفة واللاهوت.

وبعد ذلك انتقل الى جامعة باريس الكاثوليكية ليدرس التاريخ واللغات الشرقية كالعبرية ، والسريانية ، والفينيقية وغيرها . واذ رأى نفسه قد اغتنى بكنوز الثقافة الغربية ، فكّر بالعودة الى وطنه ، على الرغم مما كان يُعرض عليه ، في باريس ، من المراكز المهمة . من ذلك ان الكاهن العـالم المشهور

الرسم ١: ارزة لامرتين

الرسم ٥: مع منار الحاولة

الرسم ٤: في بحيرة اليمونة

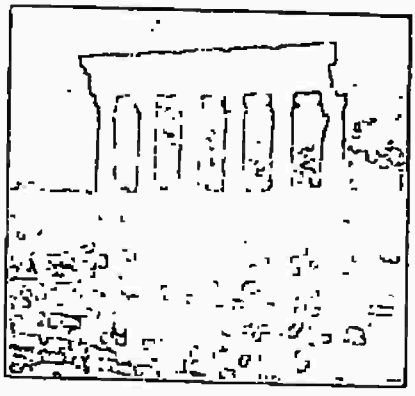

الرسم ٦: اعمدة بلبك

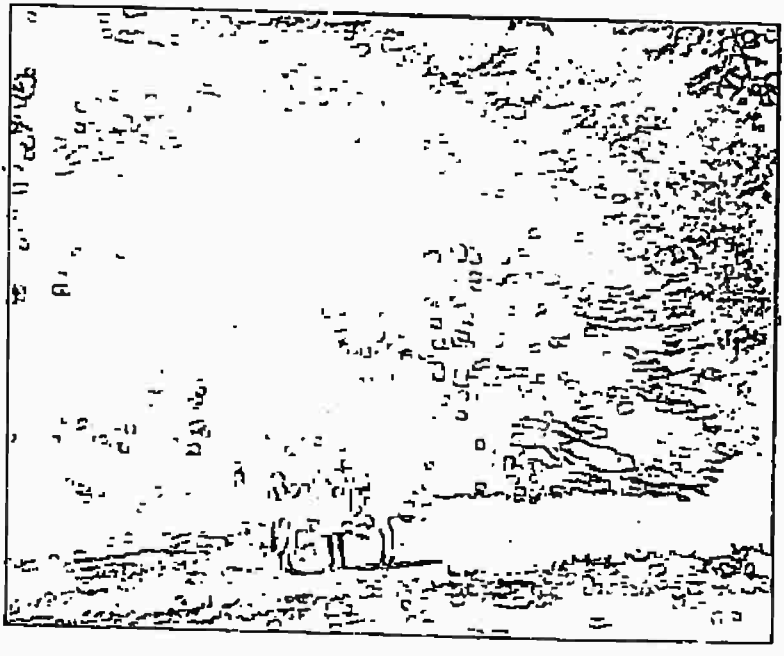

الرسم ٣: في ظلال الارز

المثلث الرحمات

المطران بطرس شبلي (١٨٧[illegible]–١٩١٧)

رئيس اساقفة بيروت

ڤيكورو (Vigouroux) اقترح عليه ان يبقى معه في فرنسة ليساعده في كتابة «معجم التوراة» . فرأى الكاهن الشاب ان وطنه بحاجة اليه ، فشكر العالم المذكور ، ورجع الى بلاده حيث رسمه سيادة المطران الدبس كاهناً في ١٤ تموز سنة ١٨٩٧ .

فبدأ اعماله في لبنان ، بالقاء الدروس في مدرسة الحكمة اولًا ، ثم في مدرسة قرنة شهوان . ولم تلبث ان سارت شهرته بعيدًا حاملةً ما اتصف به من العلم والفضائل حتى الى المهاجرين ، وما اشدّ ما كانت حاجتهم الى امثاله من الكهنة ، فكتب اليه امين الريحاني ، رسالة من نيويورك مؤرخة في ٢٦ ايلول سنة ١٨٩٩ . وهذا قسم منها ينمّ عن شخص مختلف عن مؤلف «النكبات» :

«ايها الاب العزيز المحترم . . . وقد لتبتك ايها الاب المحترم «بعزيز» ولا ارى ما يعني عن ذلك سوى العوائد لان لفظة عزيز لم يدرج استعمالها بين العوامّ والاكليروس . اما انا فقد تركت هذه العادة وخرقت حدود الدارج وما دفعني الى هذا العمل الا فرط المحبة لشخصكم اللطيف . ولا اتمكن من اظهار احترامي واخفاء محبتي التي يضطرم بها الفؤاد لان المدة التي قضيتها مع حضرتكم والاوقات التي صرفتها بمجالستكم حفرت في فؤادي اثرًا عميقًا لا تمحيه الايام ما زلت حيًّا . وكل مرة اردد ذكركم في فكري وافتكر في حديثكم الجميل وتواضعكم الزائد وحريتكم المعتدلة يتحرك في فؤادي ذلك التأثير الممزوج بالاحترام البنوي الواجب عليّ تقديمه والمحبة الاخوية التي اشعر بها رغمًا عن تفاوت المقام

. . . كم من المرات اجلس في غرفتي متحسرًا متاسفًا مغرّيًا نفسي بالآمال القوية فاقول آه لو كان الخوري بطرس راعينا في نيويرك . فكم نحن بحاجة اليه هنا . والطائفة المارونية في نيويرك يلزمها راعي نبيل وعالم جليل يستطيع الارشاد والوعظ وتكون كل اعماله صغيرة ام كبيرة مثلًا يقتبس منهُ النير ويقتدي به . نحن بنيويرك بحاجة كلية لاب غيور عالم فاضل قوي العارضة كبير العقل واسع الذهن ، فانت انت تجمع بشخصك الكريم كل هذه الاشياء . ونحن بحاجة كلية لكم هنا فهل يمكن اتمام ما نحن في صدده ضمير مدينتكم المخلص . افتكروا بذلك وتكرّموا عليّ بالجواب» .

وفي ذاك العهد ، دعي الى البطريركية في بكركي ، لينظم سجلّاتها ويرتّبها ويضع لها الفهارس . وكانت العناية الالهية تقرّبه من الوظيفة التي كان عليه ان يُظهر فيها كلّ مقدرته ، فكان غبطة البطريرك يكلفه القيام بارساليات مهمّة . فزار سنة ١٩٠٠ قرى بلاد البترون ليطلع على حالة الاكليروس فيها . ثم تفقّد الاديار في لبنان ، وفي جزيرة قبرس ، ليدرس احوالها ، ويثبت موازنة الجزيرة ،

واقفاً على احتياجاتهم جميعها. وفي غضون ذلك ، ألف في بكركي ، كتابه عن البطريرك الدويهي وهو أثر جليل ينمّ عن اطّلاع واسع.

* * *

كان هذا الكاهن المتواضع لا يفكر بسوى متابعة اعماله الروحية بسكون ، اذ وقع عليه اختيار البطريرك والاساقفة ليكون خلفاً للمطران يوسف الدبس. فاحتفل بسيامته في بكركي ، ودخل بيروت ، مركز ابرشيته ، في ٢٢ شباط سنة ١٩٠٨ محاطاً بهتاف ابنائه جميعهم. اما في ما يخصّ صفات الاسقف الشاب فاننا نترك الكلام لشاهد عيان عاشره مدة فعرفه حق المعرفة ، وهو الخوري اغناطيوس مبارك الذي خلفه ، فيما بعد ، على كرسي الابرشية نفسها. قال بعد ان اثنى على تقوى الاسقف وطهارته:

«تجرّده كان عجيباً فيما يختص بمدخوله الشخصي. وبقدر ما كان حريصاً حتى ان حرصه كان يقارب البخل في ما يتعلق بمال الابرشية بقدر ما كان كريماً بماله الشخصي. واني اذكر عندما مشى امام جنازة المرحوم فيليب ثابت في بيروت ورافق الجثة الى عين سعاده دفع له اهل الفقيد مائة ليرة لقاء خدمته الشخصية فبالحال دعاني اذ اني كنت مستلماً حسابات الكرسي وناولني من المائة ليرة خمسين لقاء نفقات الكرسي في المأتم. وبينما كنت عائدًا في تلك الساعة الى غرفتي مع الدراهم التقيت بالدار بوفد من اهالي قرية مجدليا (الشوف) اتوا ليطلبوا من سيادته مساعدة لبناء كنيستهم فكلفني بعرض المسألة لسيادته فدخلت للحال وعرضت عليه التماسهم وكانت الخمسون ليرة الباقية لم تزل على طاولته. فاخذها وقال هذا المبلغ جاء بوقته اعطهم هذه الكمية الآن والله يدبر فيما بعد. وهكذا لم يبقِ لذاته بارة واحدة مما اعطي له شخصياً.

«ومما يدل على هذا التجرد عن المال الشخصي هو قلة ما تركه بعد وفاته لحسابه الخاص فانه بقي اسقفاً تسع سنين فلم يترك سوى سبعة آلاف غرش عملة قديمة شرك وكل الباقي من مداخيله كان يذهب اما لاعمال خيرية او لمساعدات خصوصية كلها مقيدة في دفاتره الخاصة.»

اما شجاعته في قول الحق ، ولستقامة ضميره فقد اورد عليها الشاهد نفسه

مثلًا تزيد قيمته اذا علمنا انه صدر في زمن كان الجميع فيه يخافون على حياتهم قال:

«كان المطران بطرس شبلي رحمه الله ذا ضمير معروف فمتى عرف الحق لا يعود يحيد عنه. عندما ابتدأت الحرب ودخل بعض ذوي المآرب بدعوى زواج في ديوانه واستعانوا برضا باشا قومندان الجبل ومالأهم اعضاء الديوان ذاته بسبب مداخلة رضا باشا في المسألة وخوفهم من الديوان العرفي، بقي سيادته مصرًا على الحكم بعكس ما يريده رضا باشا لان ضميره لم يكن يطاوعه. فدعاه رضا باشا اليه واخذ يلح عليه بالحكم ويسمعه بعض التهديدات ان خالف. فكان جوابه. طالما المسألة هكذا فلماذا ترفعون الدعوى الى ديواني انتم اقدر مني بالسيف فاحكموا انتم ونفذوا بسيفكم اما انا فلا احكم الا بموجب ضميري. فاسكت رضا باشا بهذا الكلام ولم يحكم الا بما نصه له الضمير والوجدان.»

وقد كان بودّنا ان نتوقف طويلًا فندرس عاطفة الوطنية في صدر ذاك الاسقف الجريء. وقد برهن عنها مرّات عديدة في مواقفه تجاه رجال تركية الفتاة، وفي دفاعه عن استقلال لبنان، اذ كان الاتحاديون قد اتّفقوا على خرق امتيازاته ووجدوا من اللبنانيين انفسهم بعض المساعدين على ذلك. ولكنهم اصطدموا بمقاومة المطران شبلي وتدابيره السياسية الحكيمة. وقد ساعده في ذاك العراك لحفظ امتيازات لبنان ممثلو فرنسة في سورية بعد ان قدروا كلهم صفات الاسقف الجليل. فظلّ في الميدان يناضل عن وطنه العزيز بلسانه وقلمه، وبنفوذه الشخصي لدى الحكومة الفرنسوية. قد كان بودّنا ان نتبسّط في كل ذلك لولا ضيق المقام، فاكتفينا بالاشارة لمحيلين من يرغب في التفاصيل الى ترجمة حياته المتقنة التي نشرها ابن اخيه المحامي ميشال شبلي[1] والتي استندنا اليها في كتابة هذه الاسطر.

---

١) المطران بطرس شبلي، بقلم المحامي ميشال شبلي – المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٩، ٢٦٢ صفحة.

في شهر ايار من سنة ١٩١٤ ، ركب المطران البحر الى فرنسة ، ليحضر المؤتمر القرباني المقام في مدينة لورد . وبينما كان في باريس اغتنم الفرصة ، فقابل وزراء الدولة الفرنسوية ورغب اليهم في مواصلة الاهتمام بامور لبنانه العزيز . وفي تلك المناسبة وصفته جريدة « الطان » وصفاً دقيقاً فقالت :

« . . . ان المطران بطرس شبلي هو في ابّان العمر قويّ البنية رقيق المشر ذو لحية سوداء تكتنف وجهه المتدفق لطفاً ورصانة . وهو يتكلّم الافرنسية بفصاحة ، وبلهجة ساكنة ، وبدقة تعبير نادرة ، فيكلّمك بعبارات رشيقة طليّة بليغة . وهذا الاتقان بتكلّم اللغة الافرنسية يدلّ على تملكه ناصية تلك اللغة وادمانه على التحدّث بها ، حتى انك لا تخال انه اجنبي يتكلّم لغتنا ، فلا يضطرّ مثلاً للتردّد قبل التلفظ بحديثه كأنه يفكر بلغة اخرى ثم يترجم افكاره وشعوره . بل انه يتكلّم بدون اجهاد . وما هذا سوى دليل ظاهر على ذكائه وتربيته العلمية الممتازة . »

وفي فرنسة فاجأته زوبعة الحرب العالمية . فكان اول ما فكّر به ان يعود الى ابنائه البيروتيين . وكان عارفاً بمقدار الاتراك عليه لما كان اظهر من اجتهاد في سبيل لبنان ، ومن تعلق بفرنسة ؛ فنصح له كثيرون من اصدقائه ان يبقى في اوربة ولكنه كان متأكداً ان من واجبات الراعي ان يكون بين خرافه في ساعة الخطر . فرجع الى وطنه بعد ان مرّ برومية فحضر فيها دفن البابا بيوس العاشر ؛ وحيّى خلفه بناديكتوس الخامس عشر مقدّماً له احترام البطريرك الماروني وجمهور طائفته .

وفي ٢٤ ايلول ١٩١٤ ، وصل الى بيروت . ولم يلبث ان بدأ حياة العذاب والاستشهاد التي وصفها بالتفصيل الوافي في « مفكّرته » . وقد نُشر منها في ترجمته اقسام طويلة شيقة . وما كان اسرع جمال باشا ، سفّاح سورية ، في طلب المطران ومشاحنته في مسألة الفرمان السلطاني الذي كان الباب العالي يريد منحه للبطريرك الماروني واساقفته ، على الرغم منهم . فبذل المطران كل ما في استطاعته في سبيل حفظ استقلال الاكليروس الماروني . ولكن لم يكن مناص من الخضوع امام القوة . على ان هذا التسليم لم يخفف من غلواء الاتراك ، فاجبروا

المطران على الاستقالة ، ثم حكموا عليه بان يُقيم بعيداً عن ابرشيته . فقبل كل هذه المصائب بصبر مسيحي وخضوع تام للمشيئة الالهية . وان من يطالع مفكرته ، في هذا الشأن ، يتحقق ان ذاك الصبر وذاك الخضوع لم يفارقاه قط .

وفي ٧ نيسان ١٩١٦ سافر المطران شبلي منفياً الى اطنه . فاقام فيها نحو السنة عرضةً لجميع اصناف العذابات في جسده وقد اثّرت فيه المتاعب ، واتحدت عليه الامراض ، وخصوصاً في نفسه الحسّاسة وقد تراكمت عليه الاخبار المشؤومة عن لبنان من جوع ، واوبئة ، واعدام ، ونفي . على انه تعزّى قليلاً بوصول الخوري اغناطيوس مبارك الذي نال الاذن بمشاطرة مطرانه آلام النفي . فلم يفارقه حتى قضى الاسقف الشهيد ما قُدّر له من الحياة في هذه الفانية ، فلبى دعوة ربّه في ١٩ آذار سنة ١٩١٧ .

لم تقارب سنة ١٩١٨ الانتهاء حتى تقلّص ظلّ الاتراك فاحتلّ الفرنسويون قيليقية واقاموا فيها مدة ؛ وكان سيادة المطران اغناطيوس مبارك لا يفتأ يذكر سالفه الشهيد ويسعى بنقل رفاته الى بيروت ، لتجمع الى رفات اساقفتها ، فيستريح مع سلفائه الصالحين . فنال ما تمنّاه ، واهتم الفرنسويون باقامة هذا الواجب . فظُلّل النعش بالعلم الفرنسوي ، ونُقل الى مرسين ، حيث انزل الى دارعة افرنسية ، فحفّته فيها ثلة من الجند بالتحية العسكرية ، وسارت به الى بيروت . فوصلتها في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢١ . وكان ذاك اليوم اشبه بيوم مهرجان اذ اشترك الشعب على اختلاف طبقاته مع الحكومة الفرنساوية والحكومة اللبنانية ، بتأدية واجب الاحترام والاجلال للشهيد الكبير . واذ عُرض النعش في كاتدرائية مار جرجس ، وقد ظلّلته الرايتان اللبنانية والفرنسارية ، وقف تجاهه سيادة المطران مبارك ، وأبن ذاك الذي كان بفضائله وعلمه فخراً لشعبه ، ومحامياً عن وطنه ، وشهيداً في سبيل حريته .